

# الفصل السابع

## الثورة الفرنسية

يعد عام ١٧٨٩ حدثا هاما ليس في تاريخ فرنسا فحسب بل وفي تاريخ اوربا والعالم ايضا حيث قامت الثورة الفرنسية التى أحدثت نقطة تحول عالمية .

وقبل أن نتحدث عن الثورة الفرنسية وأسبابها ينبغى أن نوضح أن هذه الثورة تنفرد عن غيرها من الثورات بأنها لم تكن ثورة سياسية ترتب عليها تغييرات فى النظام السياسى الفرنسى فحسب بل كانت ثورة سياسية اجتماعية اقتصادية فأما كونها ثورة سياسية فلأنها حولت نظام الحكم فى فرنسا من نظام استبدادى يستند على الحق الإلهى المطلق للملك فى الحكم الى نظام يدعو الى المساواة والحرية والإخاء وأما كونها ثورة اجتماعية فلأنها نجحت فى إلغاء الامتيازات المتبقية من النظام الاقطاعى والتى كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين ، والذين كانوا يستولون عن طريقها على إيرادات البلاد وخيراتنا ، ويتهربون من دفع الضرائب والى جانب ذلك فانها اذابت الفوارق الطبقيّة بين الشعب الفرنسى ووضعت الأسس للمساواة بين الجميع ، وأما كونها ثورة اقتصادية فلأنها غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية ، وألغت نظام الاحتكار ومحت القيود التى كانت تكبل الصناعة وانتزعت أملاك الكنيسة الضخمة وحولتها الى ملكية الشعب .

ولعل هذه الصفات الجامعة التى انفردت بها هذه الثورة هى التى جعلتها تنفرد بالأهمية القصوى فى تاريخ أوربا الحديث خاصة ، وتاريخ العالم عامة لأنها كانت الأساس لما حدث من ثورات وحروب فى أوربا والعالم بعد ذلك .

وعلى الرغم مما صاحب هذه الثورة من سفك للدماء ، فقد كانت الأساس لما انتشر في العالم بعد ذلك من اصلاحات ، وهذا أضفى على تلك الثورة مسحة من التناقضات بين اسبابها وأهدافها وفيما يلي نعرض لذلك :

### أولا — أحوال فرنسا قبيل الثورة :

استطاع ملوك فرنسا من أسرة البريون أن يركزوا السلطة في أيديهم ، وكان من أشهر هؤلاء لويس الرابع عشر الذي كان يرى أن سلطته مستمدة من الله ، وبالتالي كان يرفض أى مشاركة أو رقابة على تصرفاته ، ولم يعترف بالحريات سواء كانت شخصية أو دينية أو سياسية بل رفع شعار « أنا الدولة » .

وقد خلف هذا الملك في الحكم لويس الخامس عشر الذي انصرف الى ملذاته ، وضاعت في عهده معظم مستعمرات فرنسا في أمريكا والهند ومن هنا يرجع بعض المؤرخين السبب الرئيسى في قيام الثورة الى رغبة الشعب الفرنسى في التخلص من استبداد الملكية .

وكان يعاون الملك في ادارة شئون البلاد مجموعة على قدر كبير من التخلف انتشر بينها المحسوبية والرشوة والاسراف مما جعلها غير قادرة على النهوض بمسئولياتها وادى الى افساد أحوال البلاد في شتى مناحى الحياة ، ولتوضيح ذلك نذكر ما يلى :

### ١ — نظام الطبقات :

كان يشرب التركيبة الاجتماعية للمجتمع الفرنسى تفاوت واضح ، فقد انقسم الفرنسيون الى ثلاث طبقات تتفاوت فيما بينها فكانت طبقة النبلاء تقف على قمة المجتمع الرئسى ، وتحتكر المناصب العليا ، وكانوا يعيشون بجانب الملك ، ويتمتعون بامتيازات عهد الاقطاع مثل حقهم فى الصيد بمزارع الأهالى ، والحصول على نصاب معين من غلالهم وأغنابهم وطيورهم كل عام ، وطحن غلال الأهالى في طواحينهم وعصر نبيذهم في معاصرهم هذا الى جانب حقهم فى القضاء بين المزارعين .

والى جانب ذلك كان النبلاء يتركون مزارعهم الواسعة ويقيمون في باريس حيث حياة اللهو والبذخ ، على حين يسخرون العامة في أراضيهم وعلى القيام بخدمتهم ، وكان النبلاء معفيين من الضرائب المقررة على العامة وكان لهم حق جباية الضرائب لأنفسهم .

وكانت هناك طبقة رجال الدين التى انقسم أفرادها الى قسمين قسم يشمل صغار القساوسة وكانوا لا يملكون شيئا والقسم الآخر يشمل كبار القساوسة الذين كانوا يتمتعون بكافة امتيازات الكنيسة ، وخاصة وان الكنيسة في فرنسا كانت تضع يدها على مقدار كبير من دخل البلاد ، فكان خمس اراضى فرنسا موقوفا عليها ، وهذه الاراضى كانت معفاة من الضرائب يضاف الى ذلك الهبات والاعانات ودخول الزكاة المفروضة على العامة دون غيرهم . وعلى الرغم من انه كان يجب ان تنفق هذه الأموال على الفقراء والمحتاجين ، فقد انفقها كبار رجال الكنيسة في ملذات الدنيا ومباهجها ، وبدأوا يتشبهون بالتياصرة والباطرة مما زاد الأمور سوءا على سوء . وأبعد الكنيسة ورجالها عن طبيعة عملهم ، وأفقدتهم احترام الناس .

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة العامة التى تمرغت في حماة الجهل والفقر لدرجة أن وصلت الأمور بها الى حد الجوع ، يضاف الى ذلك أن أولادهم كانوا يذهبون غالبا وقودا للحرب ، وعلى الرغم من ذلك فقد أثقلت كواهلهم بالضرائب الفادحة والأعباء غير المحتملة ، وكانوا محرومين من أبسط الحقوق الانسانية ، ولم تكن المواد الغذائية مسورة لهم ، ومن داخل هذه الطبقة ظهر أفراد « عملوا بالتجارة والصناعة التى كان الاشراف يترفعون عن ممارستها مما جعلهم يلعبون أدوارا هامة في أمور فرنسا الاقتصادية ، وخاصة بعد اكتشاف أمريكا ، واتساع آفاق التجارة داخل أوروبا وخارجها ، يضاف الى ذلك أنهم وجهوا أبناءهم وأحفادهم الى التعليم فتخرج منهم المتخصصون في شتى المهن واستطاعوا مزاحمة أبناء النبلاء فيها . وقد لعب هؤلاء دورا خاصا في التمهيد لقيام الثورة .

## ٢ - نظام الضرائب :

لم تتبع المساواة بين المواطنين في فرض نظام الضرائب قضرائب العقار على سبيل المثال كانت تفرض على العامة وحدهم وكان تقديرها يتم حسب احتياجات الحكومة ، وزكاة الكنيسة كان يدفعها العامة وبخاصة المزارعين ، وضرائب الدخل كانت تفرض على التجار والزراع .

وكان النبلاء ورجال الدين معفيين من الضرائب التي تفرض على العامة ، كما كان خمس أراضي فرنسا تقريبا وقتنا على الكنيسة مما أثقل كاهل الميزانية وأدى الى انحطاط البلاد وبؤس الحياة وقد أوضح ذلك أحد الكتاب بقوله « كانت الحكومة تنقضى على كل مائة فرنك من الدخل ما يقدر بخمسين الى سبع وخمسين فرنكا نظير ضرائبها المباشرة ، والكنيسة تأخذ أربعة عشر فرنكا والنبلاء أربعة عشر فرنك ، ويتبقى للمنتج الباقي مخصوما منه ضرائب المكوس الداخلية ، فكان ملزما بدفع ضريبة كما مر بطريق أم استخدم نهرا .. » .

## ٣ - العوامل الفكرية :

شهدت فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تطورا فكريا ومبادئ جديدة ساعدت على هز مشاعر الشعب الفرنسي وجعلته يتقبل الإنكار الثورية التي أتى بها الفلاسفة في كتاباتهم ، ومن أشهر من يهد لهذه الأفكار جان جاك روسو الذي تحدث في كتابه « العقد الاجتماعي Du Contrat Social » تقاليد الكنيسة وانهم التنظيمات الاجتماعية بأنها كالاغلال في يد الانسان ودعا الى تنظيم اجتماعي يقوم على المساواة بين أفراد المجتمع ، وتتم فيه سيادة الشعب على تقرير مصيره ومونتسكيو في كتابه « روح القوانين L'Esprit des Lois » والذي اثار فيه مسألة فصل السلطات الثلاث التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، ضمنا للحرية وصونا للعدالة ، وعالج الاسباب والمسببات في التاريخ ، وركز اهتمامه بالبحث في اثر الاسباب الفيزيائية في تفسيره مثل المناخ واحوال البيئة الجغرافية الأخرى ، وهاجم الاستبداد وأعرب عن ايمانه بحرية الانسان

وكفالة حقوقه وهو المبدأ الذى نادت به الثورة الفرنسية منذ قيامها فى عام ١٧٨٩م .

وفولتير ومدرسته فى التفكير الحر وعصر التنوير والذى نشط فى مهاجمة مساوئ الكنيسة ورجال الدين ، ورفض الأخذ بفكرة العناية الالهية التى كانت تدور حولها التفسيرات التاريخية فى العصور الوسطى ، ورأى أن معنى التاريخ يكمن فى العلوم والفنون والآداب وتهذيبات الحياة الاجتماعية ولقد عبر عن ذلك بقوله « ان مجال التاريخ يجب أن يتسع ليتبع سير العقل فى الفلسفة والبلاغة ، وفى الشعر والنقد ، وفى التصوير والنحت ، وفى الموسيقى والرسم ، وحتى فى النسيج وصناعة الساعات ، وكل ما يمثل شخصية الشعب ، لأنها أجدر اهتماما من معرفة جزئية بأخبار الملوك وأحاديث البلاط . ان الخير الحقيقى للانسانية ليس فى قوادها ، ولكن فى فلاسفتها وعلمائها وشعرائها » .

لقد كانت هذه الكتابات وغيرها تدعو الى الإصلاح الشامل فى كافة مناحى الحياة سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية ، وتدعو الى فصل السلطات الثلاث ووجود الضوابط بينها ، وتهاجم الاستبداد والحق الالهى المقدس للملوك مما ساعد على احياء روح النقد فبدأت العديد من الأمور التى كان لها احترامها فى الماضى تفقد قيمتها .

والى جانب هؤلاء المفكرين السياسيين ظهرت مجموعة أخرى من المفكرين الاقتصاديين أمثال كسناى صاحب مبدأ حرية التجارة ، والذى هاجم نظام الضرائب الجبركية ، وطالب بأن يكون استغلال الأرض هو المصدر الرئيسى للثروة كما طالب بتخفيض الضرائب .

ونتيجة لذلك بدأ الشعب الفرنسى يفقد احترامه للطبقات العليا وينبذ سادته القدماء .

#### ٤ - النظام الإدارى :

كانت فرنسا مقسمة الى وحدات ادارية شبيهة بالاقطاعات القديمة ، وكان لكل وحدة من هذه الوحدات تشريعاتها وامتيازاتها الخاصة التى

كانت تختلف عن غيرها من الوحدات الأخرى ، كما كان لكل إقليم قوانينه ونظمه المستقلة في الضرائب والجمارك والموازين والمقاييس مما عرقل عملية التبادل التجارى بين الولايات ، وأعاق قيام وحدة اقتصادية داخل فرنسا ، وأدى الى قيام بعض الأقاليم بفرض رسوم جمركية عن تجارة الأقاليم الأخرى ، وأساء في الكثير من الأحيان الى هوية العدالة والقضاء في فرنسا .

### ثانياً — لويس السادس عشر ومحاولات الإصلاح :

وبعد أن تولى لويس السادس عشر عرش فرنسا في عام ١٧٧٤م تنفس الشعب الفرنسى الصعداء لانتهاء حكم لويس الخامس عشر وقابل مجيء الملك الجديد بالترحاب لأنه كان في نظره يمثل انتهاء عصر مضى بمثالبه ومآسيه ، كما أن لويس السادس عشر كان قد أعلن أنه سيعمل على اصلاح أحوال الشعب الفرنسى الذى يحبه ، وأنه يرغب في تعديل الأنظمة المتوارثة ، ونتيجة لذلك وجد تأييداً حماسياً من الشعب الفرنسى ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت في غير صالحه للأسباب الآتية :

١ — ضعف ارادته وتردده في اتخاذ القرارات في وقت اشتدت فيه الأزمات وتكاثرت .

٢ — زواجه من مارى انطوانيت النمساوية ابنة « ماريا تريزا » امبراطورة النمسا التى لم يكن يرتاح اليها عامة الفرنسيين نظراً لتدخلها في شئون الدولة ، ومحاولات تسلطها على زمام الأمور ، ونجاحها في طرد غليب ابن عم الملك — الذى كان موضع احترام الشعب — من القصر لكرهيتها له ، مما زاد من كراهية الشعب الفرنسى لها ، فأخذ يرمز اليها بالمرأة النمساوية على سبيل الزدراء .

٣ — اهتمام اعوان الملك بمصالحهم الخاصة دون النظر الى الأزمات التى تواجه الدولة أو محاولة ايجاد الحلول اللازمة لها .

٤ — ضعف السلطة المركزية ، وخروج حكام الأقاليم عليها وانكبابهم على أموال الشعب الجائع .

٥ — اشتداد الأزمة الاقتصادية التي كانت تعاني منها فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر بسبب الحروب التي خاضتها في ذلك الوقت مما أدى الى زيادة العجز في الميزانية ، وجعل من الصعب موازنة الدخل بالمنصرف ومع ذلك ظلت الأمور على حالها دون محاولة لوضع حد لهذا الخلل واصلاح الميزان الاقتصادي خصوصاً وأن دافعى الضرائب من الفرنسيين القادرين كانوا معفين من دفعها بحكم الامتيازات القديمة ، وقد جرت عدة محاولات في عهد لويس السادس عشر لاصلاح الوضع الاقتصادي المتدهور فعهد بوزارة المالية الى بعض الخبراء أمثال تيرجو Turgot ونيكر Necker وكالون Calonne إلا أن محاولاتهم الإصلاحية فشلت أمام المعارضة الشديدة من جانب النبلاء ورجال الدين الذين كانوا حريصين على التمسك بامتيازاتهم ، وفيما يلي نعرض لهؤلاء :

## ٢ — تيرجو :

تولى « تيرجو » منصب المراقب العام للمالية ، وكان له من الخبرة والمقدرة والحماس ما يؤهله لاصلاح الأمور فعزم على الحد من سلطات الكنيسة وإيجاد نظام عادل للضرائب ، واطلاق مبدأ الحرية التجارية داخل وخارج فرنسا هذا الى جانب دعوته للقضاء على مظاهر الفساد في الادارة الحكومية ، وتقليص أفراد الحاشية الملكية . وقد أيد معظم أفراد الشعب الفرنسي آراءه في الإصلاح ، عدا الطبقات الارستقراطية التي لم تستطع تقل أفكاره ، وإلى جانب ذلك تأمرت عليه عصابة من أفراد القصر بتشجيع من مارى انطوانيت زوجة الملك وأوعزوا الى الملك بضرورة عزله ، ولما لم يكن الملك لويس السادس عشر من الشجاعة وقوة الشخصية ما يجعله يتمسك بوزيره أعفاه من منصبه ، وعين « نيكر » مراقباً عاماً للمالية بدلا منه .

## ٢ — نيكر :

على الرغم من أن نيكر كان خبيراً محنكاً في النواحي المالية فإنه كان يفتقر الى الخبرة السياسية ونتيجة لذلك حاول في أول الأمر البعد عن

أمور القصر المائية حتى لا يستثير الحاشية والملكة ضده كما فعل سلفه ، كما اخذ يستغل سمعته المالية الحسنة وخبرته الطويلة مع المصارف المائية في عملية عقد القروض بفوائد بسيطة ، وتشجيع عملية التوفير والادخار وقد سارت الأمور بطريقة تنبئ بالخير ، غير أن حادثا جلالا وقع فقلب الأمور رأسا على عقب ، ويتمثل هذا الحادث في قيام حرب الاستقلال الأمريكية . واسراع بعض المتطوعين الفرنسيين تحت قيادة « لافايت » بالإبحار الى أمريكا لمساعدة الثوار ضد الانجليز ، واضطرار فرنسا الى مؤازرة ابنائها المتطوعين في الحرب بالعتاد والمال مما كان له اثره المباشر على زيادة تدهور الميزانية الفرنسية .

ونتيجة لانفلات الأمور ، وخشية من زيادة التدهور المالي ، وحتى يبرىء « نيكرو » ساحته أمام الفرنسيين قام باصدار بيان للشعب شرح فيه الموقف المالي لفرنسا ، كما بين فيه مقدار الأموال التي ينفقها الملك وحاشيته ، ومدى مقدار البذخ والترف في القصر الملكي ، وأوضح أن طريق الإصلاح المالي يكمن في ضرورة المساواة في توزيع الضرائب على كافة المستويات .

ونتيجة لذلك أمر الملك باعفاء نيكرو من منصبه في عام ١٧٨١م واسناد هذا المنصب الى « كالون » .

### ٣ — كالون :

كان محبوبا من البلاط خصوصا وأنه لم يحاول المساس بنفقاته الباهظة ، وقد حاول « كالون » اصلاح مشاكل فرنسا المالية عن طريق الاستدانة بفوائد مرتفعة ، ولما تبين له أن هذه الطريقة ستؤدي الى زيادة تفاقم الموقف أكثر مما هو عليه ، رأى ضرورة ايضاح حقيقة الموقف لشعب ، فدعا مجلسا من الأعيان لبدء المشورة ، ومع أنه كان من المفروض على هذا المجلس أن يقترح فرض الضرائب على الطبقات المتميزة فإنه لم يفعل ذلك بل أشار الى ضرورة دعوة مجلس طبقات الأمة التي تتمثل فيه جميع فئات الأمة الفرنسية لعرض المشكلة عليه ، والبحث عن الحلول السريعة لها حتى يمكن تذليل الصعوبات التي تحيط بمالية

فرنسا . وكان هذا المجلس يمثل رجال الدين والنبلاء والعامّة وكانت كل طبقة من هذه الطبقات تجتمع في قاعة منفصلة عن الأخرى ، وعند الاقتراع على المشروعات كان يمثل كل قاعة صوت واحد ومعنى ذلك انه كان لرجال الدين والنبلاء قاعتين ، والعامّة قاعة واحدة ، ولما كانت مصالح رجال الدين والنبلاء متقاربة ، فكانا دائما ما يتفقان ضد آراء العامّة .

### ثالثا - حوادث الثورة :

وعلى كل حال فعندما اجتمع المجلس اتضح انه لم يكن لدى الحكومة خطة واضحة للإصلاح ، ونتيجة لذلك سقط « كالون » في عام ١٧٨٧م وخلفه الكاردينال « دى برين » الذى نادى باللجوء الى الملك لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الاميازات ، ولكن استياء الرأى العام الفرنسى من وجود « دى برين » ارغم الملك على عزله واستدعاء نيكرو من جديد ، ودعوة مجلس طبقات الأمة لبحث المشكلة .

وخلال ذلك دارت مناقشات صاخبة حول تكوين مجلس طبقات الأمة وضرورة تعديله ، وبتأثير من نيكرو نجح العامّة فى الحصول على نحو ستمائة مقعد بينما حصل رجال الدين على ثلثمائة والنبلاء على مثلهم ، وبقيت هناك مشكلتان الأولى وهى طريقة جلوس الأعضاء عند المناقشات والتصويت وهل يجلسون فى قاعات ثلاث كما كان الوضع ويؤخذ رأيهم على حدة بحيث يكون للنبلاء ورجال الدين صوتان والعامّة صوت واحد أم يجلسون معا كممثلين للشعب الفرنسى ، ويكون البت فى الأمور بأغلبية أصوات الأعضاء . والثانية وهى اىكون مجلس الطبقات مجلسا للشورى أو يكون جهازا حقيقيا من أجهزة الحكم .

ومع أن آمال الفرنسيين كانت معقودة على الملك لانقاذ الموقف فقد أيد الملك الحكومة ورجال الدين فى رفض اجتماع جميع الأعضاء فى غرفة واحدة مما أثبت انه كان يفتقر الى الذكاء الذى يتناسب مع ظروف الاحداث ، وجعل العامّة يستنكرون تصرفه ، ويطالبون بأن يكون اجتماع الطبقات الثلاث فى قاعة واحدة ، وأن يدلى كل فرد بصوته وتأخذ القرارات بأغلبية الأصوات . ومن أجل ذلك قرر العامّة عدم التعاون مع الحكومة حتى تسلم لهم بطلبتهم .

وفي ١٠ من يونيو عام ١٧٨٩ اقترح أحد نواب العامة وهو « سيزر » Siéyes توجيه الدعوة الى رجال الدين والنبلاء بالانضمام الى العامة في قاعدة واحدة فاذا رفضوا ذلك يطلق العامة على انفسهم « الجمعية الوطنية » ويبدأون بوصفهم نوابا للشعب في وضع دستور للبلاد سواء اشترك معهم النبلاء ورجال الدين أم لا .

ونتيجة لذلك اتخذ النبلاء من تصرف العامة ذريعة لاقناع الملك بالانضمام اليهم ، فأمر بإغلاق قاعة الاجتماعات بحجة اعدادها لعقد جلسة ملكية يعلن فيها مشيئته ، ولما كان العامة على غير استعداد للتسليم بالأمر انتقلوا الى ملعب مجاور للمعب التنس المجاور لقصر فرساي واقسموا على الاستمرار في اجتماعاتهم الى ان يضعوا دستورا جديدا لفرنسا يرفع حقوق المواطنين .

ووجدوا في ذلك تشجيعا من رجال الدين الذين كانوا متفاوتين في أصلهم الاجتماعي ، فبأغلبية صوت واحد قرر رجال الدين الاتحاد مع العامة وانضم حوالى نصفهم اليهم ، ولما انعقدت الجلسة الملكية في ٢٣ يونيو ١٧٨٩ أعلن الملك في خطبته عن بعض الإصلاحات التي رأى ادخالها في الشؤون المالية ، ورفض فكرة جلوس الأعضاء في غرفة واحدة عند التصويت وأصر على ان تجرى المناقشة والتصويت على طريقة القاعات المنفصلة مما اعتبر انتصارا للنبلاء ورجال الدين ، وتحديا للعامة الذين رفضوا قرار الملك وأصروا على عدم اخلاء أماكنهم في القاعة ، ولما وصل رسول الملك يأمرهم بالانفضاض صاح به « ميرابو » « اننا هنا بارادة الشعب ولن نبرح أماكننا الا على أسنة الرماح » .

وعلى الرغم من ان الملك هدد باستخدام القوة لسحق المعارضة فقد ناشد رجال الدين والنبلاء الخروج على أوامره السابقة والانضمام الى العامة . وفي الثاني من يوليو اجتمع ممثلو الطوائف الثلاث في غرفة واحدة واعتبروا ان مهمتهم الأساسية هي وضع الدستور وأطلقوا على انفسهم اسم الجمعية التأسيسية .

وقد أدى انتصار العامة الى شل اجهزة الحكومة الفرنسية فلم تعد الضرائب تدفع ووقعت عشرات الاغارات في الريف على مساكن النبلاء

وأحرقوا بعضها ، كما هوجمت مكاتب الضرائب وساعات أحوال النجارة ، وتفشت البطالة وأصبحت باريس تضم أعدادا ضخمة من العمال العاطلين الذين كادوا يموتون جوعا ، وكان مطلبهم الأول هو الغذاء وتحسين أحوال معيشتهم . ونتيجة لتفاقم الأمور قرر الملك استعمال القوة باستدعاء بعض فرق الجيش الى فرساي ، وصدر أوامره لهذه القوات بالتقدم الى باريس ، كما ترددت الأنباء باعفاء نيكز الذي يرضى الشعب عن سياسته من منصبه واستبدان أحد أعوان الملك الذي كان مكروها من قبل العامة به مما أشعل المظاهرات ودفع مجلس طبقات الأمة الى الانعتاد لتأليف حكومة وطنية فسيطروا على دار البلدية ( الكومون ) وجعلوها مركزا لمقاومة السلطة كما نظموا حرسا مدنيا للدفاع عن حقوق أهالى باريس وأملاكهم ، وسرعان ما تزايدت أعداد هذا الحرس وسمى بالحرس الوطنى ، وقد نجح أفراد هذا الحرس فى اقتحام دار السلاح المعروفة باسم « أوتيل دى انفاليد » واستولوا على الأسلحة الموجودة به<sup>(١)</sup> ، كما انضم الى هؤلاء قوات الحرس الفرنسى المكون من جنود نظاميين كانوا فى إحدى معسكرات باريس بعد أن تشربوا روح الثورة .

وفى ١٤ من يوليو هاجم الثوار سجن الباستيل الذى كان فى نظر الناس رمزا للطغيان وتتشعر أبدانهم هولا وفزعا من ذكره ، حيث يتعاقب فى أذهانهم سلسلة من الصور المزعجة لأولئك السجناء التعساء الذين عاشوا فى أحضانه فى أحجار تحت الأرض لا ينفذ اليها الهواء ولا يبلغها ضوء النهار ، ويرتفع فيها الثعابين والجرذان وتعشعش على جدرانه الهوام والحشرات وبعد أن تمكن الثوار من تحطيم أسوار السجن والاندفاع الى داخله ، لاطلاق سراح مسجونيه لم يجدوا بين جدرانه سوى سبعة سجناء وهم أربعة مزورين ومعتوه ونصاب وفلسق اعتقل استجابة لرغبة ذويه وعلى الرغم من ذلك فقد كان لسقوط حصن الباستيل عواقب سياسية وخيمة فى توجيه أحداث الثورة ، حيث اعتبره الناس خاتمة للطغيان ، وبزوغا لفجر الحرية وأعظم حوادث الثورة .

---

(١) جرائد : أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ص ٧١ - ٧٢ -

وما كاد سكان الأقاليم يسمعون بسقوط الباستيل حتى هاجموا قصور النبلاء ، ودمروا ما بها من سجلات تثبت حقوق النبلاء ازاء العامة وعمت الفوضى في كل مكان .

ونتيجة لتطور الأحداث وتفاقمها وتردد الملك واقتاراه الى الحزم والذكاء الذى يتناسب مع الظروف استسلم الملك للأمر الواقع وأظهر استعداداه لتقديم بعض التنازلات ، فأعاد نيكر الى وزارة المالية ، وأبعد الجند عن باريس .

ومع كل ذلك فان هذه التنازلات لم تكن كافية من جانب الملك لامتصاص غضب العامة ووقف التدهور وخشية من العواقب اجتمعت الجمعية الوطنية ، ووافقت على سلسلة من القرارات تهدف الى الغاء امتيازات النبلاء ورجال الدين ، والغاء السخرة ، والضرائب المفروضة على المطاحن والمخازن ، واعلان المساواة بين المواطنين فى الضرائب ، وفى تقلد مناصب الدولة دون قيود طبقية ، واصلاح القضاء . ومع أن هذه القرارات لاقت استحسانا كبيرا لدى الجمهور الفرنسى الا أنها تسببت فى تدهور الخزينة الفرنسية والوضع المالى عامة ، اذ انفت وبدون دراسة مسبقة مجموعة من الضرائب كانت تدر دخلا يشكل تقريبا نصف الخزانة الفرنسية .

ومع أن الجمعية الوطنية تداركت الأمر ، وأقرت ضريبة على كل من يزيد دخله عن اربعمائة ليرة فان ذلك لم يعوض ما فقدته الخزينة من موارد ، وفى أغسطس من نفس العام اعلنت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الانسان استنادا على أفكار « روسو » « ومونتسكيو » والتي كان من أهم نصوصها أن الناس ولدوا أحرارا ويعيشون أحرارا ومتساوين فى الحقوق ، وأن الحرية حق لكل فرد بشرط ألا تضر بالآخرين ، وأن الملكية حق مقدس ، وأن للفرد الحق فى تولي الوظائف المدنية والعسكرية ما دام مؤهلا لها ، وأن المواطنين متساوون أمام القانون ، وأن كل فرد برىء حتى تثبت ادانته . ونتيجة لرفض الملك التوقيع على هذه الوثيقة تأزم الموقف ، وبدأت الشائعات تنتشر بأن الملك يخطط للقضاء على حركة الاصلاح .

وخلال هذه الفترة تشكلت في باريس حكومة بلدية كاملة ، وتطور الحرس الوطنى ، واسندت قيادته الى لانغايت ، وأخذت الصحف السياسية في الظهور وتألفت الأندية السياسية لمناقشة المسائل الوطنية والتأثير على الراى العام .

ونظرا لندرة الخبز واشتداد المجاعة في باريس استغل المهيجون الموقف وبدأوا في تحريض مجبوعة من الجائعين بالذهاب أمام دار البلدية يفرساي تتقدمهم مجبوعة من النساء للمطالبة بالخبز وعودة الملك الى باريس ، وبعد أن وصل هؤلاء الجائعون الى فرساي تمكنوا من اقتحام قاعات المجلس مطالبين بالخبز ، كما تمكنوا من أن ينفذوا الى داخل القصر الملكى ، ويعرضون حياة الملك والملكة للخطر ، ولكن وصول لانغايت على رأس الحرس الوطنى أنقذ الموقف وضمن الملك والمملكة حياتهما الشخصية ، وتحت الضغوط الشديدة اضطر الملك الى مغادرة فرساي الى باريس ، فوصلها في عصر السادس من أكتوبر وعلى صدره شارة الثورة ، وظل في حماية الحرس الوطنى .

ولما كان ذلك الوضع لا يرضى النبلاء ورجال القصر فقد نظروا الى تنازلات الملك للعامة بعين الخوف والازدراء ، وأعلنوا أن تنازلات الملك للثوار غير ملزمة لأنها تمت تحت الضغط والاكراه وقرروا الهرب من فرنسا الى بلجيكا وبعض المدن الألمانية لاعادة تنظيم أمورهم ، وتحريض ملوك وحكام أوروبا ضد الثورة ومطالبتهم بالعمل ضدها .

وخلال ذلك استمرت عملية وضع الدستور وسط نواقيس الخبار ، وأخيرا استقر الراى على أن اعلان حقوق الانسان سىكون أساسا للدستور .

وفي الرابع من أغسطس أعلن عن إلغاء الاقطاع ، ومصادرة ممتلكات الكنيسة وقيام الحكومة بالانفاق على الخدمات الكنسية ودفع رواتب رجالاتها .

وعلى الرغم من مزايا هذه التشريعات ، فإن الاستيلاء على ممتلكات

ابكنيسة قد أفقد الثوار ثقة المعتدلين من رجسال الدين ، كما أثار لهم المشكلات مع البابوية .

ونظرا لتزايد الاتجاهات المتطرفة بين الثوار ضاق الملك ذرعا بالموقف فحاول الهرب مع زوجته وأولاده بناء على نصيحة زوجته ، واستطاع الخروج من العاصمة في عربة مغلقة والسير في اتجاه الحدود الشمالية ، ولكن انكشف أمره واعتقل عند بلدة فارن Varennes القريبة من الحدود وأعيد الى باريس وسط مظاهر من الضيق والاحتقار ، وعندئذ قررت الجمعية الوطنية وقفه عن ممارسة سلطاته حتى يتحدد تقرير مصيره وريثا يتم الفراغ من النظر في الدستور وعرضه عليه فإذا أقره أعيد الى ملكه وان رفضه فقد عرشه ، غير أن ذلك لم يرض أقلية صغيرة داخل الجمعية كانت ترى ضرورة اقتلاع النظام القائم وتأسيس نظام جمهوري ، ومع أنه لم تكن بين الفرنسيين مشاعر جادة نحو الحكم الجمهوري فقد أعد هؤلاء عريضة بهذا الخصوص ووضعوها على مائدة في ميدان « شان دى مارس » لجمع التوقيعات بالموافقة عليها ، ولما صدرت التعليمات بتفريق الجمهور المتجمع أمام هذه العريضة خشية اضطراب الأمن رفض المجتمعون التفرق مما أدى الى إطلاق النار عليهم في ١٧ من يوليو ١٧٩١ في مذبحه عرفت باسم مذبحه « شامب دى مارس » والتي كانت نقطة البدء للحركة التي حولت فرنسا الى النظام الجمهوري .

وعلى كل حال فقد تم وضع الدستور في سبتمبر ١٧٩١م وفيه تم توزيع السلطات ، وقبله الملك وأقسم يمين الولاء لفرنسا وبدأ وكان الثورة قد انتهت ، ولكن الأمور انقلبت فجأة فاجتمعت الجمعية التشريعية في خريف عام ١٧٩١ ، لتحديد مصير الملك ، وخلال ذلك ظهرت الخلافات في ضوءها ، وانقسم أعضاؤها الى تكتلات مختلفة بين متطرف ومعتدل ، وكان من أبرز هؤلاء « الجيرونديين »<sup>(٢)</sup> الذين كانوا من الشبان المتحمسين لفكرة الجمهورية وكان من أبرزهم « رولان » واليمانيون الذين كان من أبرزهم روبسبير ودانتون ومارا . لما تغلب رأى المعتدلين غضب المتطرفون ونظموا مظاهرة لارهاب المجلس .

---

(٢) نسبة الى أحد أقاليم فرنسا .

وخلال ذلك كانت ممالك أوروبا المجاورة تتحفظ للقضاء على الثورة بدعوى الدفاع عن الحق الإلهي للملوك ، فاجتمع الامبراطور الألماني « ليوبولد » مع « فردريك وليم » ملك بروسيا للتداول في شأن ما يحدث في فرنسا ، والتدخل لاعادة النظام اليها ، ووسط تزايد المخاطر جاءت وزارة « الجيرونديين » الى الحكم ، وكان أعضاؤها من أنصار فكرة أن الحرب مع الدول الأجنبية ستكون كفيلة بإثارة الحماس للنظام الجمهوري داخل فرنسا والقضاء على الملكية ونتيجة لذلك اندلعت الحرب ومنى الفرنسيون في بداية الأمر بهزائم متتالية ، مما أدى الى تدهور الموقف واتهام الملك بالخيانة ، وحفاظا على الثورة قرر اليعاقبة اسقاط الملك وامتلاك زمام الأمور بأنفسهم ، ثم ازدادت الأمور توترا نتيجة لقيام النمسا وبروسيا بتوجيه انذار الى الثوار ببرد حقوق الأمراء ، والعمل على وقف تصدير الثورة الى أوروبا مما أدى الى إثارة الغضب في قلوب الباريسيين ، وقيامهم بجمع القوات من الأقاليم لحماية الثورة ، وكان مرور هذه القوات في باريس بمثابة مظاهرة صاخبة وبخاصة عندما وصلت قوات مارسيليا ، تنشد المارشيليز لأول مرة .

وفي الحادي عشر من يوليو أعلن الثوار أن البلاد في خطر وبدأوا في رفع الأعلام السوداء وذلك في أعقاب تهديدات ملوك وحكام أوروبا بتدمير باريس اذا تعرض الملك وأسرته للخطر ، مما أدى الى هياج الشعب الفرنسي ، وتخليه عن الملك الذي اقترح اسمه بالدول المعادية التي تريد اهانة شرف فرنسا مهاجم الأهالي والجنود القصر الملكي ، ولما سمع الملك طلقات النيران طلب من حراسه الاستسلام ، ووضع نفسه في حماية الجمعية وفي أعقاب ذلك توجه الجمهور الشائر الى الجمعية التشريعية وطالب بخلع الملك وعلان الجمهورية ونتيجة للضغوط الشعبية تقرر إيقاف الملك عن ممارسة سلطاته واعتقاله هو وأعضاء حكومته وتشكيل جمعية جديدة باسم المؤتمر الوطني يخول اليها التعديلات الدستورية الجديدة ، وفي تلك الفترة عينت الحكومة وزارة جديدة من حزب الجيرونديين ، كما شكلت لجنة تنفيذية أسمتها « لجنة الاشراف » . ونتيجة لتدهور الموقف على الحدود الفرنسية وتردد الشائعات بتقدم القوات الغازية داخل فرنسا وسقوط حصن فردان طالب دانتون بصفته وزيرا للعدل اعطاه سلطة

تفتيش البيوت في باريس بحثا عن أعداء الثورة وفي أعقاب ذلك امتلأت السجون بالمشبوهين ، وأعدم الكثيرين منهم كما تغير الموقف على الحدود حيث استطاعت القوات الفرنسية أن تثبت أمام القوات البروسية الفازية ثوق تلال فالمي Valmy وأجبرتها على الانسحاب بعد أن كبدها العديد من الخسائر ، مما أعاد الثقة الى نفوس الفرنسيين وأيقظ فيهم الشعور الوطنى . ومن هنا تأتى أهمية موقعة « فالمي » على صغرها لأنها ولدت في فرنسا وجيشها ثقة بالنفس جعلتها مصدر الفزع لأوروبا كلها .

ولما بدأت انتخابات المؤتمر الوطنى كانت في صالح المعتدلين وكان مصير الملك على رأس قائمة الموضوعات المطروحة ، وبعد مناقشات حامية تقرر في الحادى والعشرين من سبتمبر ١٧٩٢م إلغاء الملكية وقيام الجمهورية كما تقرر تقديم الملك للمحاكمة . وفي الحادى عشر من ديسمبر صدر قرار الادعاء بتوجيه عدة تهم الى الملك من أهمها التآمر على الدولة ، ومحاولة إلغاء الدستور ، والاتصال بالأجانب ، وتعريض الوطن للغزو الأجنبى وسفك دماء الفرنسيين .

ولما مثل الملك أمام المحكمة دافع عن نفسه بطريقة اقنعت أعضاء المؤتمر ببرأته ، ولكن رعاى باريس أخذوا في تهديد أعضاء المؤتمر بالقتل اذا لم يصوتوا لصالح اعدام الملك ، كما وقف روبسيير داخل القاعة يوضح للأعضاء « انهم ليسوا قضاة بل رجال سياسة » وكان لخطابه اكبر الوقع في التأثير على أعضاء المؤتمر ، والى جانب ذلك نجح اليعاقبة في ارباب الموجودين داخل القاعة لدرجة أنهم جمعوا حشدا غفيرا من غوغاء باريس لارهاب معارضى اعدام الملك يوم أخذ الأصوات ، وساعد على ذلك الطريقة التى اتبعت يوم أخذ الأصوات ، فكان على العضو أن يذهب الى المنبر ليعلن عن رأيه أمام الحاضرين مما دفع بالكثير من المعتدلين الى الرضوخ لراى المتطرفين حتى قرر المؤتمر اعدام الملك في أول يناير ١٧٩٣ ونتيجة لذلك سبق الملك الى ساحة الاعدام وكان آخر ما نطق به هو « انى برىء . . ولكن فليكن دمى فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا » وقد اثار اعدام الملك موجة كبيرة من الاستنكار في اوساط أوروبا ، كما اثار حفيظة ملوك وحكام أوروبا على الثورة .

#### رابعاً - الموقف في فرنسا بعد اعدام الملك :

تدهور الموقف الحربى لفرنسا بعد اعدام الملك ، فلم تلبث أن وجدت نفسها مطوقة بائتلاف أوربى ضدها حيث أعلنت عليها بريطانيا والنمسا والمانيا واسبانيا وايطاليا الحرب .

والسؤال المطروح هو هل كان وقوف تلك الدول الأوربية ضد فرنسا من أجل التعاطف مع لويس السادس عشر فحسب أو كانت هناك أسباب أخرى .

الواقع أن هذه الدول كانت تخشى من انتشار عدوى مبادئ الثورة الى بلادها خصوصاً بعد اعدام الملك وعلان المؤتمر الوطنى « انه يعتبر نفسه مسئولاً عن توفير الحرية للجنس البشرى والاطاحة بجميع العروش » كما أنها كانت تخشى من اتساع النفوذ الفرنسى نتيجة للحماس المتدفق من انصار الثورة .

وعلى كل حال فإنه امام هذه التجمعات الأوربية ضد فرنسا هزمت القوات الفرنسية فى عدة مواقع وأصبح مصير الثورة يواجه نهاية مفاجئة ، ولواجهة الموقف اتخذ المؤتمر الوطنى عدة تدابير حازمة حيال الاخطار المتجمعة مركز السلطة فى يد الحكومة واعطاها حرية الحركة دون التقيد بالقوانين ، كما تقرر تشكيل محكمة الثورة للنظر فى أمر المتهمين بمناهضة الحكومة ، ونتيجة لتفاقم الأمور . تألفت فى فرنسا لجنة من تسعة أفراد بزعماء دانتون أطلق عليها لجنة الانتقاذ العام وهذه اللجنة حكمت فرنسا أكثر من عامين ، واليهما يرجع الفضل فى اتخاذ معظم التدابير التى كدلت النصر والخلاص للبلاد فقد كونت جيشاً شعبياً ، وأعلنت التعبئة العامة فى كل أنحاء فرنسا حتى تم اخراج القوات الفازية وتحول الجيش الفرنسى من الدفاع الى الهجوم ، وخلال هذه المرحلة برز قواد فرنسيون ألكفاء أمثال « كارنو » و « هوثن » و « مارسو » و « جوردان » ، استطاعوا أن يكونوا على مستوى الأحداث ، وأن يحققوا لبلادهم العديد من الانتصارات ، كما حدث صراع عنيف بين « اليعاقبة » و « الجيرونديين » انتضح من خلاله أن باريس مركز الثورة كانت فى يد اليعاقبة على حين كان

« الجيرونڊ » لا يتمتعون فيها الا بتأييد طفيف حيث كان نفوذهم يتركز فى الأقاليم فقط كما كانت صحف باريس تقف منهم مواقف المعارضة .

وفى ٢٤ من أبريل سيق مارا لمحكمة الثورة ، ولكنه برىء مما أدى الى حلق الثوريين فى باريس على الجيرونڊ ، وفى ٣١ من مايو ١٧٩٣ هبت جماهير باريس تطالب باعتقال الجيرونڊ بوصفهم أعداء الثورة ، ولما نشطت محاولاتهم قاموا بتكرارها ، وخلال ذلك نجح اليعاقة فى اعتقال عدد كبير من الجيرونڊ واقبامة جو من الارهاب استطاعوا من خلاله الاستيلاء على مقاليد الحكم ، وضرب الانظمة القائمة عرض الحائط .

وظل « دانتون » يسيطر على « لجنة الأمن العام » التى كانت أقوى أجهزة الحكم فى فرنسا فى ذلك الوقت ، واستطاع اعداد العدة لمقاومة أعدائه ، ومع ذلك لم يستطع الاحتفاظ بمكانه حيث حل مكانه « روبسبير » الذى كان خطيبا مفوها استطاع أن يستحوذ اعجاب مستمعيه . وقد نجح روبسبير فى التخلص من كل منافسيه واعدائهم ، ومع انه لم يستطع أن يظهر القدرة على معالجة شئون الحكم فانه كان محاطا بأصدقاء مخلصين يساعدونه فيما يعترضه من صعاب .

وفى عام ١٧٩٣ تقدم اليعاقة بدستور جديد وتم اقراره ولكنه لم يكدر يرى النور حتى عطل<sup>(٣)</sup> وأخذت محكمة الثورة تمارس اعمالها وساعدها على ذلك صدور « قانون المشبوهين » الذى خول لها اعتقال وسجن أى شخص دون أى محاكمة مما أدى الى ازدهام السجون بالمتهمين وكان الاعدام بالمقصلة هو العقوبة التى تطبق باستمرار وكان من أهم هؤلاء الضحايا الملكة ماري انطوانيت .

وفى أغسطس ١٧٩٣ صدر الأمر بالتجنيد الشامل ، كما قامت فى باريس حكومة حازمة لمواجهة أعداء فرنسا فى الداخل والخارج ونظرا لتزايد الخلافات بين اليعاقة اخذوا فى تصفية أنفسهم ، فقاموا باعدام « دانتون » وانصاره ، كما اعتقلوا روبسبير واتباعه ، وأودعوه السجن

ولكن سرعان ما أطلق المجلس البلدى فى باريس سراح روبسبير ، ومع ذلك فقد أصدر أعضاء المؤتمر قرارا باعتبار روبسبير خارجا على القانون وبدأ كل طرف ينظم معركته ضد الآخر . وفى النهاية خسر روبسبير المعركة واقتيد الى المقصلة ليذوق من نفس الكأس التى أذاقها للعديد من أبناء فرنسا .

وفى أعقاب ذلك أعيد تنظيم محكمة الثورة ، كما أعيد تشكيل اللجان التنفيذية بحيث لم يعد للجنة الأمن العام ما كانت تتمتع به من نفوذ من قبل ، وأغلق نادى اليعاقة وتضاءلت الأحكام بالاعدام وخلال ذلك تجددت الاضطرابات فى باريس وكان مطلب الثوار هو « الخبز ودستور ١٧٩٣ » ، وقد أمكن لقوات باريس السيطرة على الموقف ، واعتقال المشاغبين كما أعيد تشكيل الحرس الوطنى ليصبح درعا للطبقة الوسطى . وفى مايو ١٧٩٥م قام أعضاء حزب اليعاقة باحتلال قاعة المؤتمر وحاولوا أن يفرضوا على أعضائه بعض آرائهم ، ولكن القوات النظامية انتذت الموقف ، واستطاعت اخراجهم من القاعة وفى العاشر من يونيو ١٧٩٥م مات ابن لويس السادس عشر الصغير وهو فى السجن ، وأصبح وارث العرش الفرنسى هو شقيق الملك الراحل الذى كان يعمل ضابطا فى خدمة الجيوش الأجنبية الموجهة ضد فرنسا مما دفع الفرنسيين الى التقدم بدستور جديد عرف باسم دستور السنة الثالثة ، وقد نص فى بنوده على اعلان واجبات المواطن وحقوق الانسان ولم ينص على أن يكون على رأس الولة ملك ولا رئيس للجمهورية ولا قنصل وإنما لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء تحل محل لجنة الأمن العام ، وهؤلاء الأعضاء يتبادلون الرئاسة من كل ثلاثة أشهر ، ويمارسون جميع السلطات التنفيذية فى الولة ، وتسقط عضوية واحد منهم سنويا بالاقتراع وقد عرفت هذه اللجنة باسم « حكومة الإدارة » ، وبالنسبة للسلطة

التشريعية فقد أوكلت الى مجلس يضم خمسمائة عضو تسقط عضوية ثلثهم سنويا كما انشئ مجلس للشيوخ من مائتين وخمسين عضوا لمراقبة أعمال مجلس الخمسمائة .

وخلال هذه الفترة برز اسم بونابرت لحسن بلائه في حصار طولون ، وشجاعته في واجهة المواقف الصعبة ، واستعدادده لتسلم السلطة بنفسه من حكومة الادارة التى أثبتت عدم قدرتها على مواكبة الأحداث .